إضاءة

لطالما كانت أصداء القضية الفلسطينية في إيطاليا مرتبطة باليسار المشغول بالنضال عبر الاجتماعات والمهرجانات وبالتمجيد الكلامي للضحايا و«الأقليات»، لكنّ مقاومة الشعب الفلسطيني متعددة الأدوات، ودفاعه عن أرضه، أثبتا أن الغرب لا يحترم إلا مَن يدافع عن نفسه

أمل بوشارب

القضية الفلسطينية في إيطاليا من فكرة الضحيّة إلى اكتشاف النضال

المقاومة تفرض احترامها

تماماً كما أنها تخطّ صفحة جديدة ومختلفة جذرياً من صفحات الصراع العربي الإسرائيلي، يبدو أن الانتفاضة التي تشهدها فلسطين حالياً قد بدأت بتغيير رياح التفكير بشأن القضية الفلسطينية داخل الساحة الإيطالية على نحو غير مسبوق، بعد عقود من التخندقات الإيديولوجية التي قذفت بالقضية خارج اهتمامات الرأي العام.

عن المنحط الجديد الذي فرضته الهبّة الفلسطينية مقابل المعسكر الأيديولوجي التقليدي عَلّق رئيس تحرير «مرصد المشرق» نينو آورتو: «يبدو أن الرسالة الأخيرة للهبّة الفلسطينية مرّت دون أن يلاحظها أحد بسبب ضجيج الثرثرات المعتادة لخبراء القضية الذين غدت تعليقاتهم أشبه بأحاديث الحانات ومنطق مشجعي الملاعب (...) النقطة المركزية هنا هي أن المواجهة قد تغيّرت وتغيّر شكلها: فمَن «نحن» الإسرائيليون و «أنتم» الفلسطينيون، نمرّ إلى «نحن» اليهود و«أنتم» العرب. لا بد من التفكير في إطار سياسي وإيديولوجي جديد نقرأ من خلاله التطورات الحاصلة». «على هذا الصعيد من الواضح تماماً أن الإسرائيليين هم من يخسر هذه الحرب». هكذا علّق أحد الناشطين على تدوينة آورتو الذي أيّد تماماً الفكرة.

في المقابل، بقي الداعمون المؤدلجون للقضية الفلسطينية في إيطاليا، مصرّين على ضرورة العودة إلى الوضع السابق، مع محاولة إرجاع الجدل السياسي في الصراع إلى المربّع صفر، وهو الذي نجحت الهبّة الأخيرة في تجاوزه كلياً. مربّع التذكير بالخلافات الداخلية الفلسطينية والعربية، وكليشيه «حماس تُحرج النضال السلمي الفلسطيني»، وما يرافق ذلك عادة من بكائيات «الأنجي أوز» (المنظمات غير الحكومية) وشعاراتها المنكوبة. فما سبب إصرار أنصار فلسطين الإيديولوجيين على عزل القضية عن محيطها العربي وتحييد أي قراءة حولها تضعها في سياقها الحضاري الطبيعي؟

لفهم هذا التوجه لا بدّ من أن ندرك أن أنصار القضية الفلسطينية في إيطاليا طالما انتهجوا أسلوب «الانتحاب» لكسب تضامن الرأي العام، وذلك من خلال خيارات بحث وترجمة يمكن تصنيفها في خانة البكائيات الأوشفيتزية التي يعرفها الغربي جيداً، في محاولة لخلق طباق بين محرقة اليهود والنكبة؟ وهو مسعى «طيّب» لكنه معاق فكرياً وغير قابل للتنفيذ من حيث إن عقدة أوشفيتز نجحت في التغلغل في المخيال الغربي والرسوخ فيه، لأنها قائمة على سردية تستوفي بالكامل شروط الدراما الكلاسيكية التي تحترم الذكاء الفني للمتلقّي الأوروبي، وهو مَن نشأ على حبكات التراجيديا الإغريقية المتقنة. فالبطل الطيّب في كل قصة، ولأجل أن يكسب التعاطف المطلق من المتلقي، لا بد أن يقف في وجهه بطل شرير مرسوم الملامح بعناية فائقة: هتلر الدموي. أمّا في قصة النكبة فهو «الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط» التي يروّج أنصار فلسطين في إيطاليا أنفسهم لأطروحات يسارها. الأمر الذي حال دون اقتناع الأوروبي بقصّة النكبة بسبب ما تعانيه من ثغرات تقنية وخلل في رسم الشخصيات، وهي هنات تسبّبت بها الرقابة من جهة، واصطفافات يسارية عولمية من جهة ثانية، لا ثغرات في السردية الأصلية.

هذا عدا عن معطيات أخرى لا مجال للتفصيل فيها هنا، دفعت بالمستشرقين الجدد للإصرار على تحييد الفلسطيني عن بيئته العربية الطبيعية وتقديمه كجنوب إفريقي مسلوب الحقوق، أو زنجي مضطهد، أو كوريّة مغتصبة أو أي شيء آخر إلا كونه عربياً، مع كل ما يستدعي ذلك من استدعاء لأمجاد حضارية لا تتناسب مع دور الضحية. هذه المحاولات «الطيّبة»، القاصرة فكرياً وغير المتماسكة درامياً، لإظهار الفلسطيني كضحية أبدية في سبيل نصرة قضيته، انحرفت بشكل تام عندما بدأ التركيز في السنوات الأخيرة يتّجه نحو إظهار المحيط العربي كمحيط خرب مضطهِد من قبل الدكتاتوريات العربية، بينما يقدّم الفلسطيني الاستثناء الثقافي في المنطقة وهو من يعيش في كنف «الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط»، مع حرص المستشرقين الجدد (من مناصري القضية) على دعم الفلسطينيين من أجل الحصول على حقوقهم المدنية من النظام اليميني الإسرائيلي. وإن كان الفلسطيني قد قبل بتحجيم نضاله حالياً، ضمن مفردات حقوقية كمفردات الفصل العرقي، والتمييز العنصري وما إلى ذلك من منطق «خذ وطالب»، مع عدم نسيان حقه في تصفية الاستعمار، إلّا أن أشدّ المتعاطفين مع القضية الفلسطينية راديكالية في إيطاليا لا يرى للفلسطيني حقوقاً أخرى غير تلك الحقوق المدنية التي يعترف بها بشكل مخاتل اليسار الإسرائيلي، على تنويعاتها. لتأتي هبّة فلسطين الأخيرة، والمستمرّة، وتصحّح كلّ التصورات العرجاء عن مطالب الشعب الفلسطيني أمام الرأي العام الإيطالي، وتعيدها إلى إطارها الحقيقي، جارفةً معها أيضاً، وعلى نحو غير متوقّع، صورة العربي الإرهابي التي جرى تكريسها طيلة سنوات عديدة من طرف ماكينة إعلامية وثقافية متجذّرة. فكيف حدث ذلك؟

في عام 2020 وخلال أهم مهرجانات إيطاليا الموسيقية، «سان ريمو»، تمّت دعوة الصحافية ذات الأصول الفلسطينية رولا جبريل ضيفة على المهرجان الذي يحوز أعلى نسب مشاهدة تلفزية طيلة أيام السنة. في هذه المناسبة اختارت الضيفة (التي حرص السيناتور الإيطالي لوتشيو مالان على تذكير الإيطاليين أنها صديقة هارفي واينستن) إلقاء خطاب عن العنف ضد المرأة في العالم وضمن البيئة العربية التي نشأت فيها، مع التأكيد مسبقاً على أنها لم تتعرض لأي رقابة من المحطة الحكومية التي تنقل المهرجان الفني الأبرز على الإطلاق. هذا الخيار الذي أظهر لإيطاليا بأسرها أن قضية المرأة الفلسطينية هي الحصول على حقوقها من الرجل العربي المتوحّش وليس تصفية الاستعمار، سجّل في مرمى القضية الفلسطينية هدفاً قاتلاً من بوّابة الحقوق المدنية، وهو ما لم ينتبه له محبّو فلسطين حينها، في ظل هيمنة خطابات نسوية الماينستريم التي تحوّلت إلى أسرع وصفة ماركتينغ تخديرية للترويج لأي حدث فني أو سياسي.

(روائية جزائرية مقيمة في إيطاليا)

> اظهرت فلسطين بهذه الانتفاضة أن لديها فائضاً من العزيمة
>
> الرأي العام الغربي لا يحترم سوى من ينتفض للدفاع عن نفسه

من مظاهرة تضامنية مع الشعب الفلسطيني في مدينة بيزا الإيطالية، 15 أيار/ مايو الجاري (Getty)

درس في الكرامة

لم يقلب المنطف الجديد الذي فرضته الانتفاضة الفلسطينية الحالية موازين السياسة في المنطقة فحسب، وإنما أعاد للغربيّ الحسّ الطبيعي لتحديد البوصلة. وقد تبيّن، مع دفاع الشعب الفلسطيني عن نفسه، أن الغربي يحنّ في قرارة نفسه إلى زمن الفروسية الذي لا يخشى فيه المقاتلون النزال للانتصار لكرامتهم، بعيداً عن السرديات المتهاوية لحقبة ما بعد الحداثة والتي حاولت عبثاً أن تساوي بين جبن المتخاذلين وعنفوان المقاومة.

إطلالة

مكيال لأوروبا وآلاف المكاييل للآخرين

«قيم الجمهوريّة» لا تسري على فلسطين

أدين غياب صوت المثقّفين والمحلّلين من المشهد الإعلامي الفرنسي، والذين كانوا يصمّون الآذان بنقاشاتهم حول «حقوق الإنسان»... الأوروبي طبعًا

نجم الدين خلف الله

لا يحتاج الواحدُ أن يكون مُثقّفًا عُضويًا ولا مفكّرًا موسوعيًا، ولا حتى باحثًا جامعيًا، ليلحظ البرود الثقافي والسياسيّ الذي طبع مواقف أغلبية هؤلاء الذين كانوا يملؤون الشاشات والمنابر، كلّما أصيب أحد الأوروبّيين بشرارة طائشةٍ من جحيم «التشدّد الإسلاميّ»، لا إدانةً واضحةً لما يجري في فلسطين من فظاعاتٍ وجرائم، من صانعي المشهد الثقافي، مع أنّ أدنى واجبٍ إزاء المعرفة التي باسمها يتكلّمون، أن يشهدوا على ما يُقترف في ساحات التاريخ من مجازر. يرى مثقّفو العالم بأسره القنابل تحصد عشرات الأبرياء وتدمّر المباني على مَن فيها من أطفال ونساء، فلا يرفّ لهم جفن، سوى تصريحاتٍ جاهزة، لغتها متخشّبة، لا أثر للصدقِ فيها، تتساءل عن جدوى التحليلات الاجتماعيّة وعن معنى التنظير المعرفي الذي لطالما ملأوا به الكتبَ والمقالات والمواقع.

صمتُ أدينه بأصدق عبارات الإدانة، ولا أريدها أن تمتزج بهذه الإدانات الرسمية الباردة، التي تُطلقها بعض المنظّمات والهيئات، بعد اتخاذ احتياطاتٍ وتحفّظات، يتعب العقل في تتبُّع تراكيبها، ليظفر في نهاية المطاف بشجب أقربَ لانتقاد موت قطّ في الطريق العام. لذلك، أدين، صادقَ الإدانة، غياب صوت المثقفين والمحلّلين من المشهد الإعلامي الفرنسي، مع أنهم كانوا يصمّون الآذان بنقاشاتهم حول «حقوق الإنسان» (الأوروبي طبعًا)، و«الشرعيّة الدوليّة» و«سيادة القانون» وكرامة البشر (من الأوروبيين قطعًا)، حين يشيع أدنى نبأ لقصف بيت أو مهاجمة فرد، ولو من مختلّ معزول. تكون الوصفة آنذاك جاهزة: ربطٌ سريعٌ بـ«الإرهاب»، ثم تمجيد لقيم «الجمهوريّة»، ولم لا في أحسن الأحوال تأصيلٌ لإسلام فرنسا، وفي أسوأها دعوة لطرد المُهاجرين وإعادة تحرير القرآن. هكذا، في سلاسة مدهشة ومنطق مقيت.

أنظر إلى مفردات الإعلام الدائر وخطابات قلّة من أهل الثقافة تكلموا هنا وهناك، فإذا بها تستعيد الأيام المؤسِّسة الماضية بفلسطين، كما لو كانت مُجرّد «مناوشات» و«أزمة» و«توتّرات» تجري عاديًا في «الشرق الأوسط». هكذا، بكلّ هذا التمطيط الجغرافي: مئات الضحايا من الأطفال والعجّز والنساء آثار جانبيّة لمناوشات عرضيّة، تقع في «الجزء الآخر من الأرض». وقبله طرائف رفع الحجر الصحّي عن المقاهي والساحات.

ولا أدري هل هذا التهميش للفظاعة خبثٌ كامنٌ في وسائل اللغة، أم مكر لدى مُستخدميها أولئك، حيث يبحثون في أرصدتها عن أخفّ الكلمات وقعًا، ويطلقونها سريعًا، وسط غابة من أخبار، حقًا تافهة، تشتّت الوعي وتلهي القارئ. المهم، لا تُزعِجَ حساسيةَ المثقّف ولا يظهر عجزه، حينها تُكذّب الأحداث أطروحته التي يصوغها في الرخاء وهشاشة ما يَبنيه من أنظمة القيم: تلك التي يشرّع بها سياسات الكيل بمكاييل: مكيالٍ واحدٍ لأوروبا، وآلاف المكاييل الأخرى يُنتجها تباعًا، عن كل حالة تقع في بقيّة دول العالم. والأغرب سلسلةٌ من تعليلات جاهزة، تتسوّر تركيبات ذهنية، يُبرّر بها هذا الصمت، فتجري عبارات من قبيل: «صراع معقّد» و«نزاع أبدي» و«قضية أممية محلّها منابر الأمم المتحدة»، وغيرها من صيغ، كأنها قواعد من مجلّات القانون الدولي.

> كان صمت الضحايا الأبرياء آثار جانبيّة لمناوشات عرضيّة

تَهول السامعين بطابعها الرسمي وتُخرسهم بأسلوبها المقدّس. يَعلم مَن يطلق هذه الصيغ الخشبية أنّه يكذب على نفسه وبداري عجزه. ما جدوى المعارف إزاء الموت المنتشر، إذا صارت تحصينًا للوهم وتزييفًا لحقائق الألم. أدينُها بصدقٍ، تلك المعارف.

وحدهم الفلسطينيون، على اختلاف مشاربهم الفكرية، أدركوا هذه البداهة: تقيّم الفظاعات المرتكَبة ضدّهم بميزان خاصّ، يُصنع استثناءً لهم، في سبيل أن يبقوا خارج «القيم الكونيّة»، فليسوا جزءًا من أي كونٍ ولا تشملهم أنظمة التحقيق القانونيّ ولا قواعد شرعته الدوليّة. حتى لغة الفظاعات لا تقوى على تصوير ألم ما يكابدون قصفًا وتدميرًا: ما يجري اليوم في أرضهم «مناوشات».

(كاتب وأكاديمي تونسي مقيم في باريس)

من قمع الشرطة الفرنسية لمظاهرات التضامن مع فلسطين التي خرجت في باريس يوم 15 أيار/ مايو رغم منع الحكومة الفرنسية (Getty)

النص الكامل
على الموقع الالكتروني

شعر

ليس نبيذاً ما يعصرهُ العصّارون ولكن فيضُ دمي في العنبِ

فاتحة الكتاب

محمد علي شمس الدين

1

أرسلتُ غزالاً نحو الشمسِ لينطحها
وأسلتُ بكائيَ في القَصَبِ
لا
ليس نبيذاً ما يعصرهُ العصّارون ولكن
فيضُ دمي في العنبِ
وأنا
لستُ بعرّافٍ ينظرُ في النجمِ ويقرأ ما
سطّره الأفّاكون
من الكذبِ
هيمانَ على وجهي
أسألُ
عمّن يسقيني الماء
فلا أسمعُ غير طنينِ ذباب الأعرابِ على
الكتبِ
من حولي سبعةُ أنهار وبحارٌ تذرعها
الحيتان
وأذنابٌ يخوتٍ من ذَهَبِ
وأموتُ بصحرائي عطشاً؟
شَرَدَ العقل
وأفلتتِ الكلمات
وجُنَّ المتدارِكُ في الخببِ وسأقتل
أعلمُ
يقتلني نسبي
وسأصلبُ ما بين اللدّ وغزّة والنقبِ.

2

صليتُ ببغدادَ صلاة الدَمْ
ونثرتُ بغزّة أوجاعي
وعبَرتُ الجسرَ الواصلَ ما بين الموتِ
وأضلاعي
دمعي أصلُّ الطوفانِ
وقرباني جسدي
فاقطع إن شئتَ يدي
ستموتُ الغابةُ بالأغصانِ
ويعلو للأشجارِ عويلٌ
حتى يثقبَ سقفَ القبة
منْ لم يعرف وجعَ الإنسان وغربتَه في
الأرض
فلن يعرفَ ربّه.

3

آخيتُ ما بينَ القفارِ وغربتي في الأرض
أضلاعي على خطّين يمتدانِ
من طرفِ الحجاز إلى الشامِ فصرختِ
الريح
هذا الخوف لي
وأنا الذي حرّكتُ في الشجنِ الرواية
وانتدبتُ أصابع الشعراء
كي تثب القصيدة في فراغ جنونهم
كالظبي
ها إني أنام على الحديد
ولا أرى كيما يقبّلني القطارُ
وغداً ستمتلئ الجرارُ
ويفيض دجلة في السوادِ
إذا تعمّد من دموعي
لكنما ظهري حمى ودمي حرام.

بطاقة

شاعر وكاتب لبناني من مواليد عام 1942 في قرية بيت ياحون بالجنوب اللبناني. مجاز في الحقوق ويحمل دكتوراه في التاريخ من الجامعة اللبنانيّة. صدرت له 23 مجموعة شعريّة بطبعات متعدّدة عن دور نشر لبنانية وعربية. من عناوينه الشعرية: «قصائد مهرّبة إلى حبيبتي أسيا» (1975)، و«الشوكة البنفسجية» (1981)، و«أما آنَ للرّقص أن ينتهي» (1988)، و«اليأس من الوردة» (2009)، و«النّازلونَ على الرّيح» (2013).

«الطريف»، إسماعيل شموط. زيت على قماش 1964 (جزء من لوحة)

فعاليات

حتى الرابع عشر من الشهر المقبل، يتواصل معرض **صيد الفراشات** للتشكيلية اللبنانية **هالة مزنّر**، الذي افتُتح في «غاليري اجيال» ببيروت الخميس الماضي. تستخدم الفنانة موادّ مختلطة مثل السيلكون ومسحوق الحجر والزيت والورق على سطح لوحتها، حيث تشتغل على الطبيعة بأسلوب يمزج بين التشخيص والتجريد.

مشروعات الإسكان الحكومي الحديثة داخل القاهرة التاريخية: منطقة زينهم كدراسة حالة عنوان المحاضرة التي يقدّمها افتراضيا الباحث المعماري **احمد برهام**، عند السابعة من مساء غدٍ الاحد، بتنظيم من «جمعية الفكر العمراني». يناقش المحاضر الابعاد العمرانية والاجتماعية لتلك المشروعات، لفهم حقيقة تناقضها مع النسيج العمراني لاحياء القاهرة الفاطمية والمملوكية.

تقيم «مكتبة قطر الوطنية»، بالتعاون مع «مطافئ: مقرّ الفنانين» في قطر، عند العاشرة من صباح اليوم السبت، ورشة افتراضية بعنوان **تقنية السيانوتايب في عملية طباعة الصور** تقدّمها الفنانة الفوتوغرافية القطرية **مشاعل الحجازي**، وتتناول خلالها تاريخ تقنية الطباعة الزرقاء وكيفية صنع لوحة فنية مستوحاة من الطبيعة.

يُفتتح، اليوم السبت، معرض الفنان الكيني **مايكل ارميتاج** في «الاكاديمية الملكية للفنون» بلندن، تحت عنوان **مرسوم الجنّة** والذي يتواصل حتى التاسع عشر من ايلول/سبتمبر المقبل. يتناول ارميتاج احداثاً سياسية في تاريخ بلاده من خلال رسمه بالزيت على الـ«لوبوغو»، وهو قماش تقليدي في مناطق شرق افريقيا.